الأبنية الأثرية في دمشق

دراسة وتحقيق

٣

المدرسة الجقمقية

عبد القادر الريحاوي

موقع المدرسة

ازدهرت الحركة العلمية في العصرين الأيوبي والمملوكي واشتد اقبال الملوك والأمراء والوجهاء على تشييد نوع من المنشآت العامة كانت تؤدي يومئذ وظيفة المسجد والمدرسة والتربة معاً. وكان أصحابها وأهل الخير من ذوي اليسار يوقفون عليها الأوقاف الواسعة من عقارات وبساتين لتقوم بنفقة الأساتذة وطلاب العلم وما يحتاجون إليه من طعام وكساء ورواتب. ولينفق منها على ترميم البناء وفرشه.

وكان حي الكلاسة الذي يحتل المنطقة المجاورة للجامع الأموي من ناحية الشمال يشتمل وحده على حوالي عشرين معهداً علمياً بين مدرسة وتربة وخانقاه (١).

وأرى من المفيد هنا أن أعدّد بعض هذه المعاهد العلمية وأن أعيّن مواقعها على مصور

---

(١) تسمية أعجمية استعملها العرب مؤنثة وهي نوع من المعاهد العلمية يخصص للصوفية والعلماء المغتربين يشبه الرباط والتكية.

الحي الذي يصلح أن نطلق عليه اسم الحي الجامعي أو المدينة الجامعية لدمشق في القرون الوسطى الإسلامية . (انظر المصور رقم ١) .

١ ـ **الخانقاه السميساطية** : وتنسب إلى واقفها أبي قاسم السميساطي المتوفى عام ٤٥٣ هـ . وكانت دار الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، وهي الآن مدرسة ابتدائية جددت عمارتها في عصرنا .

٢ ـ **المدرسة الصادرية** : وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله عام ٤٩١ هـ . وقد اندثرت .

٣ ـ **المدرسة الكلاسة** : بناها نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٥٥ هـ . وسميت بالكلاسة لأنها أنشئت قرب مكان عمل الكلس عند بناء الجامع الأموي . وقد درست .

٤ ـ **المدرسة البلخية** : نسبة للشيخ برهان الدين البلخي أول أساتذتها . بناها الأمير ككز الدقاقي عام ٥٢٥ هـ .

٥ ـ **المدرسة الفاضلية** : نسبة للقاضي الفاضل وزير صلاح الدين . استمر نشاطها العلمي حتى القرن العاشر الهجري . وتشاهد اليوم متهدمة خلف تربة صلاح الدين .

٦ ـ **المدرسة العزيزية** : وتضم تربة السلطان صلاح الدين . بنيت عام ٥٩٢ هـ ، ونسبت إلى الملك العزيز ابن صلاح الدين ، وقد تهدمت ولم يبق منها سوى التربة وبعض العناصر .

٧ ـ **المدرسة التقوية** : بناها الملك المظفر تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين عام ٥٧٤ هـ . تحولت إلى دور للسكن .

٨ ـ **المدرسة الرواحية** : بناها التاجر ابن رواحه المتوفى سنة ٦٢٢ هـ . وقد اندثرت .

٩ ـ **المدرسة العادلية الكبرى** : اشترك في بنائها الملك العادل نور الدين محمود والعادل

---

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس : عبد القادر النعيمي الجزءان الأول والثاني . حققه الأمير جعفر الحسني .

سيف الدين أبو بكر بن أيوب وتضم تربة هذا الأخير المتوفى عام ٦١٥ هـ . وهي اليوم مقر المجمع العلمي العربي .

١٠ – **الخانقاه الأندلسية** : من القرن السابع الهجري وقد اندثرت .

١١ – **المدرسة الظاهرية** : بنيت سنة ٦٧٦ هـ لتضم تربة الملك الظاهر بيبرس وابنه بركه خان . وهي اليوم مقر المكتبة الظاهرية .

١٢ – **دار القرآن السنجارية** : بناها التاجر علاء الدين السنجاري المتوفى سنة ٧٣٥ هـ وهي ضائعة بين دور السكن .

١٣ – **دار القرآن والحديث الصبابية** : بناها شمس الدين بن الصبان عام ٧٣٨ هـ واحترقت في كارثة دمشق في عهد تيمرلنك (٨٠٣ هـ) .

١٤ – **المدرسة الاخنائية** : نسبة إلى قاضي القضاة شمس الدين الاخنائي . أنشأها ودفن فيها عام ٨١٦ هـ . وما تزال قائمة إلى جانب الجقمقية .

١٥ – **الخانقاه الجقمقية** : بناها الأمير سيف الدين جقمق سنة ٨٢٤ هـ . تحولت إلى دور للسكن .

١٦ – **المدرسة الجقمقية** : بناها الأمير سيف الدين جقمق سنة ٨٢٤ هـ .

فإذا أضفنا إلى هذه المعاهد كلها الترب العديدة في الحي التي اسهمت في النشاط العلمي بما كانت تضمه من مكتبات وإذا ذكرنا مدارس الجامع الأموي وحلقات الدرس العديدة التي كانت تعقد فيه قدرنا ما كان يشيع في هذا الحي من حركة علمية وكيف كان يعج بالطلاب والأساتذة الذين جاؤوا اليه من أنحاء الأرض .

والمدرسة الجقمقية التي أقدّم هذه الدراسة عنها بمناسبة ترميمها من جديد وإعادتها إلى حالتها الأصلية هي احدى مدارس هذا الحي الجامعي . وتقع على بعد خطوات من باب الجامع الأموي الشمالي ، يحدها شمالاً شارع الكلاسة وشرقاً الشارع المؤدي إلى الجامع الأموي ، وغرباً التربة الأشرفية المهدومة وتربة صلاح الدين ، وجنوباً الخانقاه الأندلسية المهدومة والجامع الأموي .

- تاريخ المدرسة

أمر ببنائها نائب السلطنة في دمشق الأمير سيف الدين جقمق سنة ٨٢٣ هـ فاكتمل بناؤها سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) ، وجعل فيها تربة دفن بها والدته سنة ٨٢٣ ووقف عليها أوقافاً كثيرة منها سوق جقمق (١) الذي عمره أيام ولايته ، وخان يقع شمالي جامع المصلى وطاحونة الأعجام في وادي بردى . وفرشها بأنواع من البسط وزينها بالقناديل المكفتة وعين لها المشايخ للتدريس فيها . وقد القى أول درس فيها الشيخ شرف الدين مفلح حضره قاضي القضاة وجماعة الفقهاء .

وتذكر المصادر أن جقمق هذا تركماني الأصل يتكلم العربية . وقد تنقل في خدمة الدولة إلى أن عينه السلطان المؤيد شيخ (دوادارا) كبيراً أي أميناً للسر ثم ولاه بعد ذلك نيابة الشام عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) ولما مات المؤيد سنة ٨٢٤ أعلن العصيان في دمشق ولم يلبث أن قبض عليه حين وصل السلطان الجديد المظفر أحمد (٢) إلى دمشق ومعه كبير الأمراء ططر فنزلا من القلعة ، وجرت مصادرة جقمق وقتل في ٢٧ شعبان عام ٨٢٤ هـ ودفن في مدرسته بعد أن نهبت وأخذت أوقافها (٣) .

كان جقمق شديد الاهتمام بالتعمير والبناء وقد حض الناس على الانتقال إلى داخل المدينة وتعميرها وباشر نفسه بعمارة سوق الفسقار أو سوق جقمق الذي ذكرناه وسوق الطيوريين (٤) والمدرسة الجقمقية والخانقاه المقابلة لها .

وقد خلدت الكتابة المنقوشة على واجهة المدرسة الجقمقية أعماله العمرانية وخاصة بناءه للمدرسة والخانقاه ، وفيما يلي نصها .

---

(١) في مكان سوق الصوف حالياً في الشارع المستقيم (سوق مدحة باشا) ويرجح أن يكون هو نفسه سوق الفسقار الذي سيذكره الأسدي فيما بعد في عداد ما أنشأه جقمق من أسواق .

(٢) السلطان أحمد بن المؤيد شيخ ولد عام ٨٢٢ وتولى السلطنة عام ٨٢٤ ثم عزله ططر في العام نفسه وتولى السلطنة مكانه .

(٣) انظر ترجمة جقمق في الضوء اللامع للسخاوي المتوفي عام ٩٠٢ هـ . الجزء ٣ الصفحة ٧٤ ،

(٤) داخل باب الجابية أحد الفروع الشمالية للشارع المستقيم .

« بسم الله الرحمن الرحيم (آيات قرآنية) ... أنشأ هـذه الخانقاه والتربة المباركية المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المهدي العابدي الهاشمي الناسكي الزعيمي المقدمي الذخري الظهيري السيفي عز الاسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين سيف أمير المؤمنين جقمق الدوادار المؤيدي كافل الممالك الشامية المحروسة ضاعف الله له الثواب وغفر له ولوالديه ولأحبابه يوم الحساب بمباشرة الجناب السيفي تعزي ورش في شهور سنة أربع وعشرين وثمانمائة » .

إن الخانقاه التي يذكرها النص المتقدم هي بناء منفصل عن المدرسه وقد أوضحت المصادر بأنها تقع مقابل المدرسة الجقمقية ، (انظر مكانها على المصور رقم ١) ويلاحظ بأن النص المذكور يسمي المدرسة (تربة) مع أن البناء يشتمل على التربة والمدرسة ، وان المصادر القديمة أطلقت عليه اسم المدرسة ، ذكر ذلك النعيمي في (الدارس في تاريخ المدارس) ، واسماها كذلك صاحب الشذرات [١] وغيره كما أنها استعملت فعلاً مدرسة ومكتباً للأيتام خلال تاريخها الطويل ، ولقد روى الأسدي [٢] بأن جقمق بنى تربته على أنقاض بناء قديم كان تربة للمعلم سنجر الهلالي [٣] ثم صادرها منه السلطان الناصر حسن [٤] عام ٧٦١ وأمر ببنائها مكتباً الأيتام ثم تحولت إلى خانقاه واحترقت أيام العدوان المغولي على دمشق في عهد تيمرلنك عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) . وظلت كذلك إلى أن جاء الأمير جقمق وجدد بناءها ووسعها من جهة الجنوب وجعل لهـا شبابيك إلى الكلاسة وجعل في قبلتها مكتباً للأيتام . وجـاءت في غاية الحسن ليس بدمشق ولا مصر نظيرها [٥] .

وتأييداً لما تقدم من أن المدرسة قامت على أنقاض بناء سابق وتوسيعهـا جهة الجنوب فقد ظهرت خلال أعمال الترميم في الواجهة الجنوبية عناصر عمرانيـة غير منسجمة منها وجود عضادة ثلاثية العقود تخص الرواق البيزنطي المجاور للجامع وقد سدت احدى قناطره وأدخل في جدار الواجهـة المذكورة وتشاهد كذلك عناصر جدران متعامدة معه ولعلها تخص الخـانقاه الأندلسية

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ ابن العماد الحنبلي المتوفى عام ١٠٨٩ هـ . الجزء ٧ ص ١٦٤

(٢) المشهور بابن قاضي شهبة ، ينقل عن النعيمي كثيراً . كتبه في التاريخ لم تنشر بعد توفي عام ٨٥١ هـ .

(٣) ترجمته في الدرر . الجزء ٢ ص ١٧٥ لابن حجر العسقلاني المتوفي عام ٨٥٢ هـ .

(٤) أبو المعالي حسن بن الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون . تولى السلطنة وحكم بين سنتي ٧٤٨ و ٧٥٢ وعزل ثم ولي ثانية فحكم بين سنتي ٧٥٥ و ٧٦١ هـ .

(٥) الدارس الجزء الأول ، صفحة ٤٨٩ .

المهدومة خلال حريق تيمرلنك (انظر الصورة رقم ١) ، كذلك ظهرت خلال أعمال الترميم فسيفساء زجاجية تحت أرض قاعة المدرسة .

ومهما يكن فان المدرسة الحالية بهندستها وزخارفها ترجع إلى أيام الأمير جقمق أي إلى عام ٨٤٤ هـ (١٤٢١ م) . لم يطرأ على البناء خلال العصور سوى تعديلات طفيفة كبناء غرف فوق الايوان الشمالي عليها الطابع العثماني المتأخر ، واحداث درج في هذا الايوان يؤدي اليها ، مما سد غرفة صغيرة أصلية إلى جانب الايوان المذكور . وكذلك سدت بعض نوافذ المصلّى لمصلحة الجوار وفتح باب في جدار القاعة الغربي يؤدي إلى بناء اضافي محدث .

واستمرت المدرسة تؤدي وظيفتها خلال العصور ، وآخر ما نعرفه عنها أنها كانت كتّاباً لتعليم الأولاد في أواخر القرن التاسع عشر ثم أسس فيها الشيخ عيد السفرجلاني[1] عام١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) أول مدرسة على الطريقة الحديثة سميت بالمدرسة الجقمقية العلمية وكان فيها قسم ابتدائي وقسم رشدي (أي ثانوي) وكان لها الفضل في تعليم الرعيل الأول من رجالات دمشق أمثال فخامة السيد شكري القوتلي ، وفي عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) تحولت إلى مقر الحلقة المولوية وظلت كذلك إلى أن أصيبت بقنبلة من طائرات الحلفاء عام ١٩٤١ م هدمت سقف قاعتها وبعض جدرانها وأحدثت فيها شللاً عاماً ، (أنظر الصورة رقم ٢) .

واستمرت على هذه الحال إلى أن اهتمت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف في عهد مديرها الحالي الدكتور سليم عبد الحق الذي بذل جهوداً مشكورة لانقاذ هذه الآبدة التاريخية الجميلة ، واعادتها الى ما كانت عليه .

ومما نبه الأذهان إلى أهمية هذه المدرسة هو ما تعرضت له من سرقة لوحاتها الحجرية ذات الكتابات الزخرفية الجميلة . ففي عام ٢٩ آب من عام ١٩٥٣ صادر رجال الشرطة في دمشق من رجل يدعى حمدي الزعيم بضعة أحجار من هذه الكتابات ، اتضح بعد ذلك أن لديه كمية

---

(١) المتوفى عام ١٩٣٣ وهو والد الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني الذي تفضل فزودنا بهذه المعلومات القيمة عن مدرسة والده .

كبيرة منها ورغب المتحف الوطني بشرائها بالنظر لقيمتها الأثرية والفنية ، إلا أن خبير المديرية السيد رئيف الحافظ اكتشف بأنها تخص المدرسة الجقمقية ، وأظهر التحقيق بأن لصوص الآثار قاموا بسرقتها عام ١٩٤١ بعد أن وضعوا نماذج جصية مزيفة مكانها .

ولفت هذا الحادث أنظار مديرية الآثار الى غنى المدرسة الجقمقية بالزخارف التي لا نظير لها في دمشق فرأت ضرورة المحافظة عليها . ولما تهاونت دائرة الأوقاف في الانفاق على ترميمها عمدت المديرية العامة للآثار الى استصدار مرسوم جمهوري بتاريخ ٢ نيسان ١٩٥٦ يقضي بوضع المدرسة تحت تصرفها ، وفي ١٦ منه صدق أول اعتماد لترميمها وقدره خمس وعشرون ألف ليرة سورية وتلته اعتمادات أخرى بلغ مجموعها حوالي المائة ألف ليرة .

ومنذ ذلك التاريخ وورشات المديرية العديدة تعمل بجد ونشاط تحت اشراف الملحق الفني السيد زكي الأمير ومعاونيه من أجل انقاذ هذه الآبدة واعادتها الى حالها القديم . وقد فكت الأقسام الخطرة وأعيد بناؤها وجددت الأقسام المتهدمة وصنع لها سقف من الإسمنت المسلح بالإضافة للسقف الخشبي الذي جدد كالسابق تماماً من حيث شكله وزخارفه وألوانه . وفكت الزخارف الجدارية من فسيفساء ورخام وألواح كتابية كانت تكسو جدران قاعة المدرسة والتربة فاستكملت نواقصها ورممت وأعيدت إلى مكانها بطريقة فنية (الصورة رقم ٣) . ولن يأتي عام ١٩٦١ حتى تتم هذه الأعمال وتفتح المدرسة لزائريها بحلتها القشيبة كما كانت يوم اكتمل بناؤها في ٨ ربيع الثاني من عام ٨٢٤ هـ .

وأرى من واجبي أن أعترف بالمساعدة القيمة التي قدمها إلي الملحق الفني السيد زكي الأمير لدى دراستي لكثير من تفاصيل المدرسة من الناحية الهندسية فله شكري وتقديري .

هندسة المدرسة ومخططها

المعروف أن فكرة المدرسة ظهرت في العراق حين بني نظام الملك [1] في بغداد عام ٤٥٧ هـ

---

(١) هو أبو الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس من أهالي طوس . كان وزيراً في بغداد للسلطان السلجوقي الب ارسلان وابنه ملك شاه . ولد عام ٤٠٨ هـ ومات عام ٤٨٥ هـ .

(١٠٦٤ م) أول مدرسة في العالم الاسلامي (١) . وكانت المساجد من قبل تقوم مقام المدرسة أو الجامعة ، فيها تقام الصلاة وتعقد حلقات الدرس والمناظرة ، واليها يختلف الاساتذة والطلاب . وكانت تتخذ في بعض الأحيان دور السكن مدارساً توقف على القراء والمحدثين الى ان دخلت المدرسة الجديدة كهندسة مبتكرة تتجلى في المخطط ذي الأواوين الأربعة المتقابلة ، بحيث تصلح للتدريس والصلاة معاً . وبذلك تخلصت الدروس من القاعات الكبيرة ذات العمد والاركان الكثيرة التي تحجب الأستاذ عن طلابه في المساجد ، واستقلت حلقات الدرس المختلفة عن بعضها ، كما توفرت في المدارس منافع أخرى وعناصر لم تكن موجودة في المساجد كوجود غرف لسكن الأساتذة والطلاب ، وأصبحت بعد ذلك تضم تربة يدفن فيها منشىء المدرسة .

ونقل أتابكة السلاجقة الذين حكموا سوريا منذ أواخر القرن الخامس الهجري فكرة المدرسة كمؤسسة جديدة وبنيت في عهدهم عدة مدارس في دمشق منها الصادرية والبلخية والامينية ثم اجتهد نور الدين زنكي آخر الأتابكة في بناء المدارس وتوسع الأيوبيون في عمارتها فانتشرت في كل أنحاء البلاد الداخلة في حكمهم ، وخصص بعضها للحنفية وبعضها للشافعية والبعض الآخر للمالكية ، وكان غرض الأيوبيين الذين ورثوا الحكم الفاطمي في مصر ايضاً القضاء على المذهب الشيعي وتخريج موظفين وقضاة وعلماء وكتاب لخدمة الدين والدولة .

وان انتقال فكرة المدرسة من العراق أدى لنقل التصميم الخاص بالمدارس ذي الأصل الفارسي والمؤلف من الصحن المحاط بالأواوين الأربعة المقابلة ، إلا أن هذا التصميم لم يطبق بحذافيره في سوريا بل أدخلت عليه تعديلات تطورت مع الزمن وخاصة في العهد المملوكي حيث أصبح لمدارس هذا العصر طابع خاص من حيث الهندسة ومواد البناء والزخارف . وسوف تتجلى لنا هذه الخصائص لدى وصفنا لمخطط المدرسة الجقمقية وفن العمارة فيها .

بنيت المدرسة على رقعة تكاد تكون مربعة تقدر مساحتها بمائتين وخمس وثمانين متراً مربعاً وتحتوي على صحن صغير (٦٦٥ × ٧١٥ سنتمتراً) تتوسطه بركة مثمنة وأربعة أواوين مختلفة الأطوال ، وتربة تعلوها قبة عالية تحتل الزاوية الشرقية ، وللصحن سقف خشبي مستو

---

(١) ذكر الرحالة ناصر خسرو لدى مروره على نيسابور في ٢١ شوال عام ٤٣٧ هـ (٢٢ نيسان ١٠٤٦ م) انهم كانوا يشيدون بها مدرسة قرب سوق السراجين أمر ببنائها الحاكم طغرل بك محمد . (سفرنامة ص ٢).

الصورة رقم ١ ـ الواجهة الجنوبية

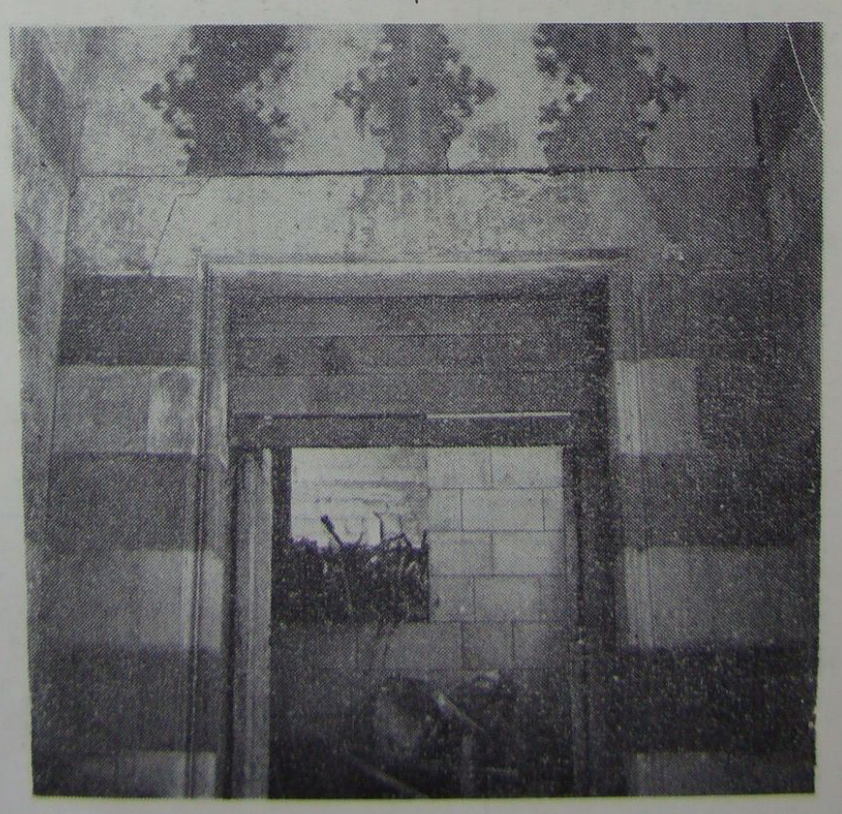
الصورة رقم ٢ ـ منظر عام للمدرسة لدى المباشرة بترميمها



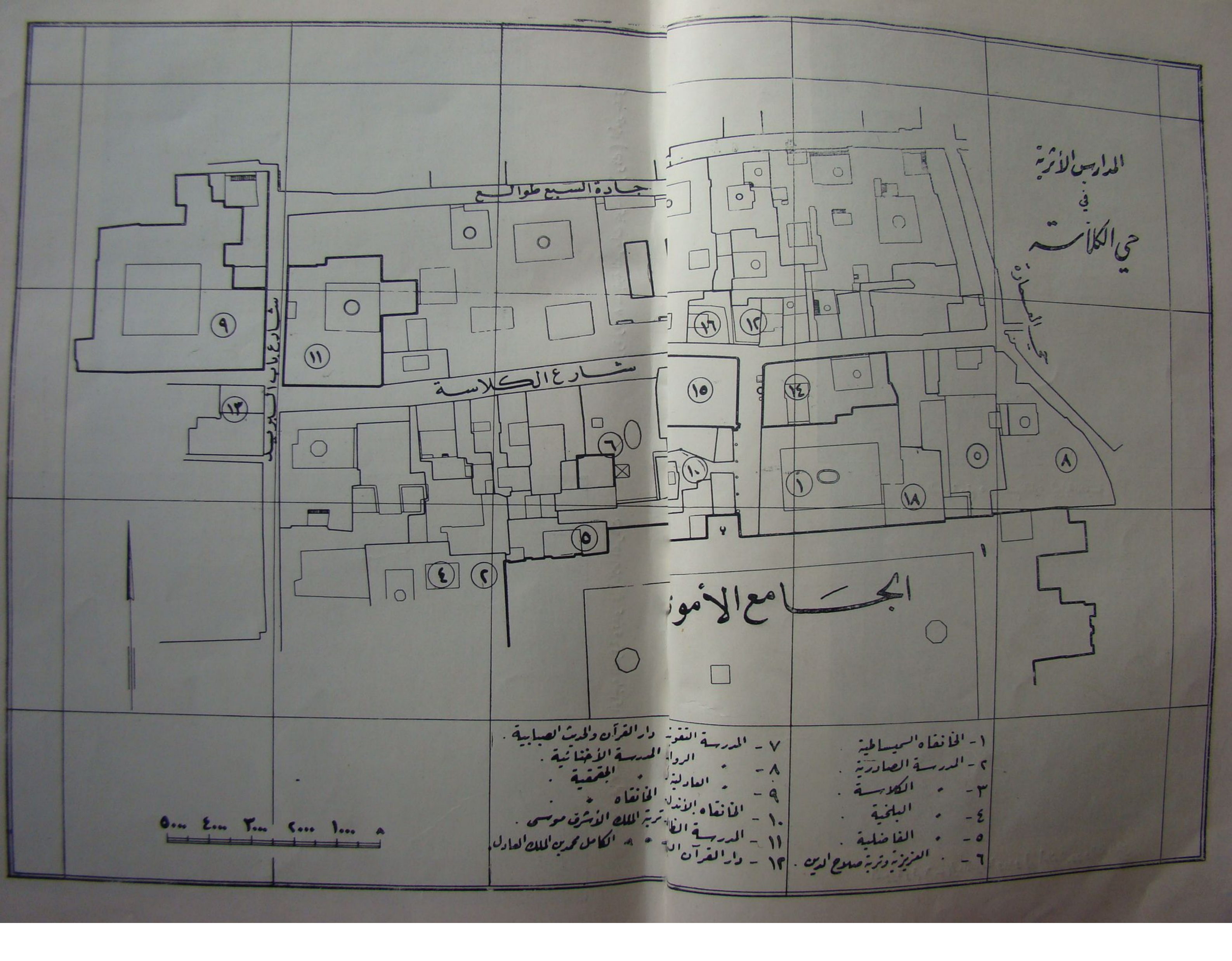
الصورة رقم ٣ ـ جانب من ورشة ترميم الزخارف

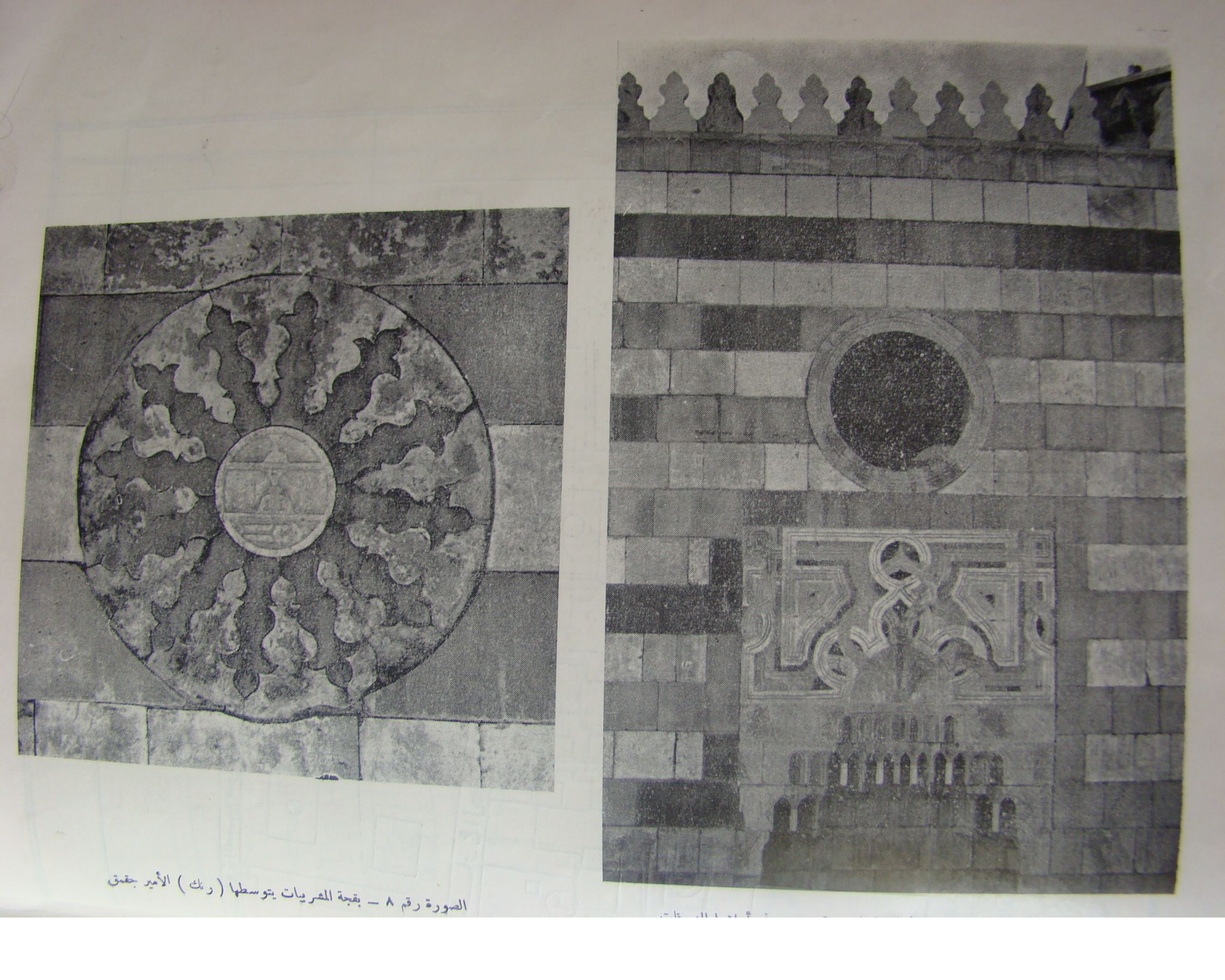
الصورة رقم ٤ ـ عقود (أقواس) الأواوين .

الصورة رقم ٥ ـ القسم العلوي لبوابة المدرسة

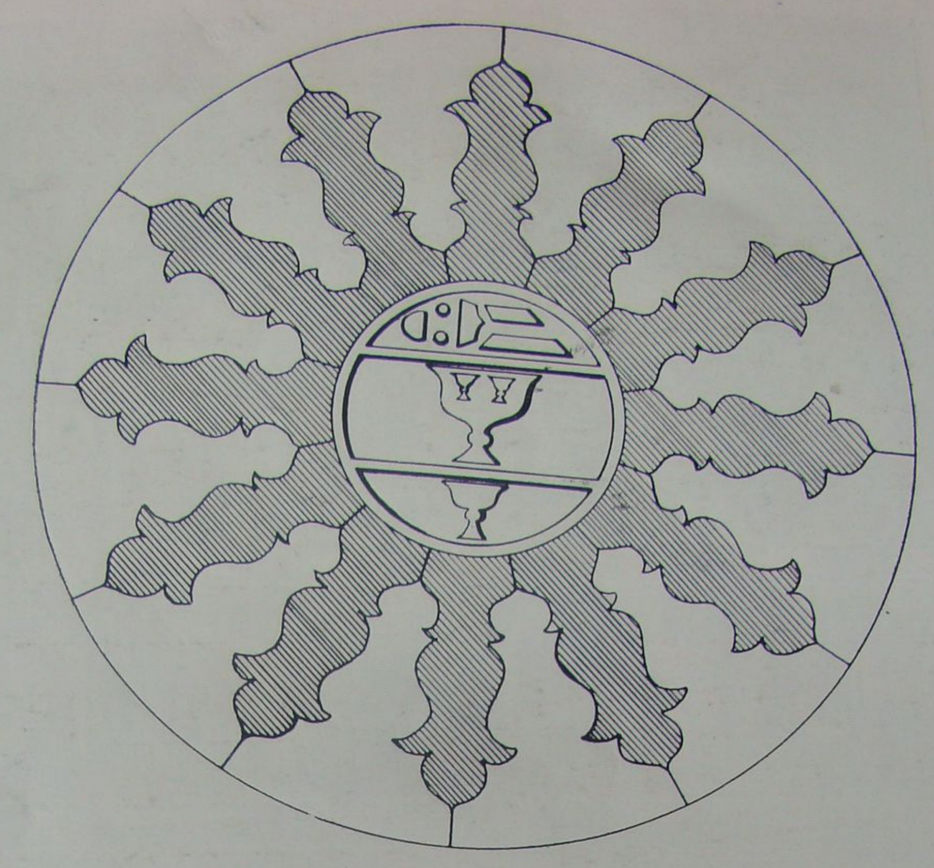


الصورة رقم ٦ ـ باب المدرسة ويبدو في أعلاه المزرر والعقد العاتق


المدارس الأثرية
في
حي الكلاسة
جادة السبع طوالع
شارع الكلاسة
شارع باب البريد
الجامع الأمو
١ - الخانقاه السمساطية .
٢ - المدرسة الصادرية .
٣ - " الكلاسة .
٤ - " البلخية .
٥ - " الفاضلية .
٦ - " العزيزية وتربة صلاح الدين .
٧ - المدرسة التقو
٨ - " الروا
٩ - " العادلية
١٠ - الخانقاه الأندل
١١ - المدرسة الظا
١٢ - دار القرآن ال
دار القرآن والحديث الصبابية .
المدرسة الأخنائية .
" الجقمقية .
الخانقاه " .
تربة الملك الأشرف موسى .
الكامل محمد بن الملك العادل
٥٠٠٠ ٤٠٠٠ ٣٠٠٠ ٢٠٠٠ ١٠٠٠

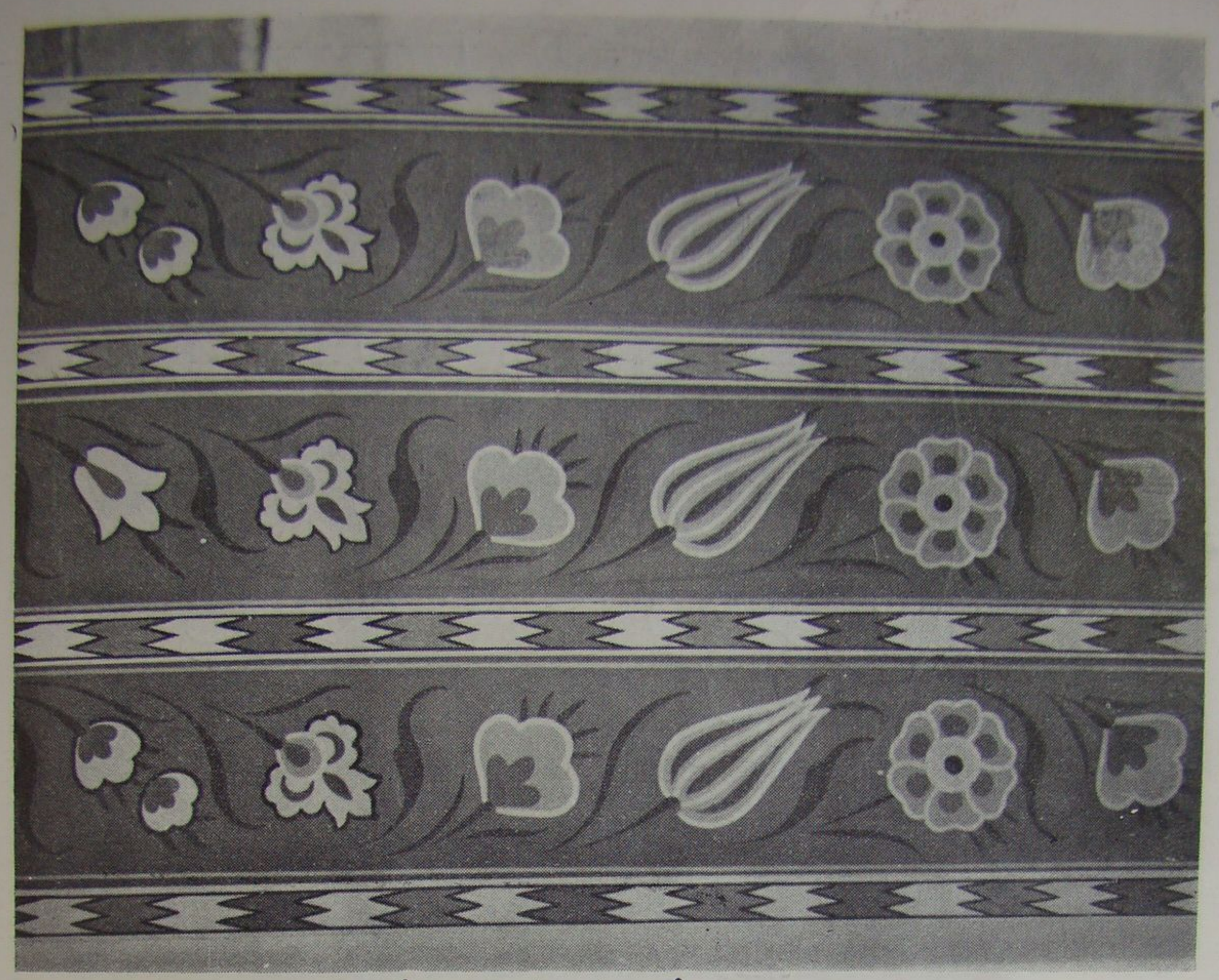


الصورة رقم ٨ — بقجة المشربيات يتوسطها (رنك) الأمير جقمق

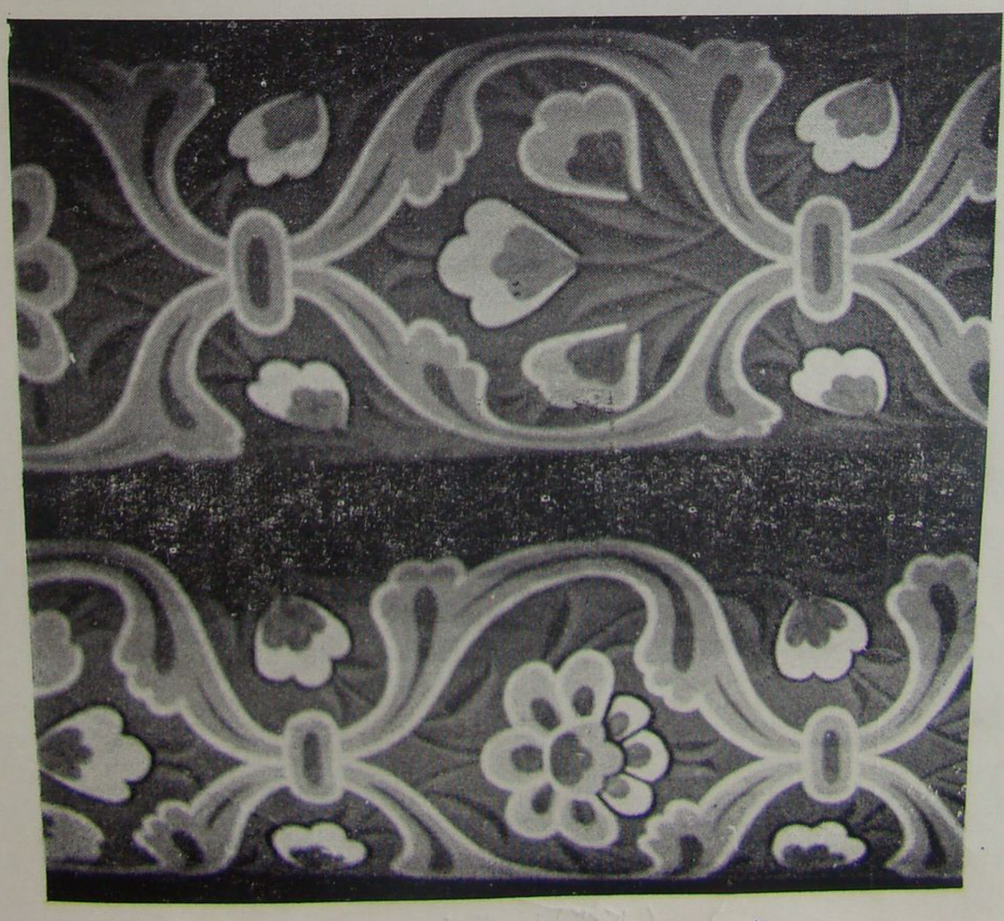


الشكل رقم ٩ – رسم توضيحي للصورة رقم ٩

الصورة رقم ١٠ – سقف مدخل المدرسة (الدركاه)



الصورة رقم ١١ ـ الألواح الخشبية في سقوف الأواوين



الصورة رقم ١٢ ـ الجسور الخشبية في سقوف الأواوين

يرتفع حوالي (١٢،٥ متراً) . وقد جعل أكثر ارتفاعاً من سقف الأواوين كي يسمح للنوافذ الست عشر المفتوحة في أعلا جدران الصحن من امداده بالنور اللازم .

إذا ألقينا نظرة فاحصة على هندسة المدرسة ونحن نزورها أو تأملنا المصور (رقم ٢) المنشور مع هذا البحث ، بدا لنا للمدرسة تصميم طريف حقاً ، تصميم قائم بذاته فلا هو يشبه الأواوين المتقابلة (Cruciforme) بالرغم من وجود أربعة أواوين ولا يشبه نظام الاروقة المألوف في المساجد .

ويحسن بنا لدراسة هذا المخطط أن نتصور محوراً يمر في منتصف الصحن من الشرق إلى الغرب ويشطر مدرستنا إلى جناحين الأول جنوبي ويشتمل على الأواوين الثلاثة الجنوبي والشرقي والغربي والثاني شمالي ويضم التربة والايوان الشمالي والمدخل .

ويلاحظ بأن الأواوين الثلاثة في الجناح الجنوبي قريبة من بعضها ومتصلة في قاعة واحدة لها شكل حرف الباء المقلوب (انظر المصور رقم ٢) .

ويبدو أن المهندس اضطر أمام ضيق المدرسة والحاجة إلى ايجاد مكان يصلح للتدريس والصلاة معاً ، اضطر إلى مخالفة القاعدة المتبعة في بناء الاواوين وابتكار هذا التخطيط الذي يجمع بين منظر الأواوين المألوف وبين نظام الرواق . فقد جعل الايوان الجنوبي يتسع شرقاً وغرباً على طول المدرسة متخذاً شكل رواق ذي ثلاثة عقود (أقواس) محمولة على عمودين ، العقد الأوسط كبير والجانبيان صغيران محجوبان بالرواقين الشرقي والغربي ، بينما يقابل العقد الأوسط الصحن متخذاً شكل الايوان .

أما الايوانان الشرقي والغربي فصغيران متقابلان وقد فتحا من ناحية على الصحن ومن ناحية أخرى على الرواق القبلي فاتصلا به واشتركا معه بالعمودين الوحيدين الذين يحملان عقديها وعقود الرواق جميعاً ، (انظر الصورة رقم ٤) .

وتتألف واجهة كل من الايوانين الشرقي والغربي من عقد مدبب مخموس فوقه سويرية تحمل عقدين صغيرين من النوع نفسه . ولقد أراد المهندس بذلك أن يتلافى الانخفاض الحاصل في عقد

هذين الايوانين بسبب صغرهما ، فأضاف اليها العقدين الصغيرين والسويرية ، وبذلك أصبحت واجهتها تصل في ارتفاعها الى سوية العقد الكبير في الايوان الجنوبي . وهذا التصميم غير مألوف في هندسة الأواوين إلا أنه متواتر في أروقة المساجد .

وأخيراً فان قاعة المدرسة هذه بأواوينها الثلاثة ترتفع عن أرض الصحن مسافة ثمانية وسبعين سنتمتراً ، ولها ثلاثة سقوف خشبية مستوية متشابهة ، وفيها عدد من الشبابيك ، أربعة منها في الجدار الجنوبي يتوسطها المحراب ، جعل أحدها منذ البدء خزانة بسبب وجود جدار قديم في مكانه قبل بناء المدرسة حال دون فتحه إلا أنه يحقق التناظر المطلوب ، وهناك شباكان آخران في كل من الجدارين الشرقي والغربي ، وتوجد نوافذ في الأعلى موزعة على سائر الجدران تجلب النور إلى القاعة .

لننتقل الآن إلى وصف الجناح الشمالي أي النصف الشمالي للمدرسة ، وتحتل ركنه الشرقي التربة وفيها قبران عاديان من اللبن أحدهما للأمير جقمق والآخر لأمه ، وهي غرفة مربعة طول ضلعها أربعة أمتار ونصف المتر مسقوفة بقبة عالية محمولة على أربعة عقود جدارية ، وفي زواياها مقرنصات تؤمن الانتقال بين الشكل المربع والشكل الدائري ، وفي التربة ثلاثة شبابيك أحدها مفتوح على قاعة المدرسة المصلى .

ويحتل الركن الشمالي من هذا الجناح ايوان صغير وغرفتان صغيرتان عن يمينه وشماله ويرتفع الايوان عن أرض الصحن مقدار أربع وسبعين سنتمتراً ، وفي صدره شباك يطل على الشارع . ويبدو أن تعديلات طرأت على هذا الايوان في أواخر العهد العثماني جعلت عقده دائرياً بعد أن كان مدبباً كسائر عقود المدرسة . وانخفض سقفه كثيراً ليوسع مكاناً لطابقين من الغرف محدثين ، جعل لهما درج في جدار الايوان نفسه .

وأخيراً هناك مدخل المدرسة الذي يحتل الركن الغربي من هذا الجناح ويتألف من ممر منكسر يبتدىء بباب خارجي تليه غرفة صغيرة تفضي إلى الصحن (انظر المصور رقم ٢) .

ويلاحظ هنا بأن الباب لم يتوسط واجهة المدرسة كما هو الحال في المدارس الدمشقية التي سبقت عصر المماليك كالمدرسة النورية والعادلية والركنية والصاحبية ، ورأينا أن مبعث هذا التغيير الذي أصبح شائعاً في العصر المملوكي هو الاحتفاظ بالايوان الرابع للمدرسة وعدم التضحية به من أجل المدخل .

فن العمارة

تعتبر المدرسة الجقمقية نموذجاً كاملاً لما صار إليه فن العمارة في العصر المملوكي ، لقد تطور الفن الإسلامي وازدهر في هذا العصر وبلغ أوجه في المرحلة الثانيــة منه أي في عهد المماليك الجراكسة الذي يبدأ من أواخر القرن الثامن الهجري وينتهي بالفتح العثماني .

فمنذ بداية العصر المملوكي أخذ فن العمارة في سورية ومصر يتخلى عن طابع التقشف والصرامة الذي ساد في العصر الأيوبي وراح المهندسون والفنانون يعيرون الاناقة والفخامة كثيراً من الاهتمام .

ولعمارة المدارس في هذا العصر عدد من الخصائص منها ما يتعلق بالتخطيط والشكل العام من ذلك أن الصحن مال إلى الصغر وأصبح مسقوفاً غالباً يوحي بالدفء تتوسطه بركة مثمنة صغيرة، واتسع الايوان القبلي بالنسبة للأواوين الأخرى ، وتعالت القبة في الترب وزالت منها الرقبة والقاعدة المثمنة أو الاثني عشرية واكتفي بالمقرنصات لتأمين الانتقال من الغرفة المربعة الى القبة .

هذه الخطوط العامة نراها متجلية في المدرسة الجقمقية ، مع اصالة ظاهرة في التصميم والتنفيذ نتجت عن ميل المهندس الى التحرر شيئاً ما من تقاليد العمارة المألوفة ليحقق الناحية العملية وليدخل الحركة والحيوية على منظر البنـاء الداخلي والخارجي بحيث لم يترك فيـه جدراناً صماء ، نحس بذلك أينما نقلنا أنظارنا .

أما من ناحية مواد البناء فانا نشاهد الحجر المنحوت الصقيل في الواجهتين الشمالية والشرقية إلا أن مقاييس الحجارة صغيرة إذا ما قورنت بالأبنية الأيوبية ، وارتفاع المداميك في مدرستنا

لا يزيد عن (٣٥ سم) وهي بلقاء يتناوب فيها اللون الأبيض مع الأسود . ويشاهد الحجر المنحوت أيضاً في عقود الأواوين وفي قسم من جدران الصحن حتى ارتفاع ٤٢٥ سنتمتراً . واستعمل اللبن في أقسام البناء الأخرى وخاصة في الأقسام العليا لجدران القاعة وغطيت بالكلسة بينما استعمل الحجر غير المنحوت في الأقسام السفلى وكسي بالرخام والزخارف ، أما السقوف فجميعها خشبية مؤلفة من جسور اسطوانية تحمل طبقة من ألواح الخشب .

الزخارف

المدرسة الجقمقية غنية بزخارفها غنى لا يضاهيها فيه أي من الأبنية الدمشقية في العصرين الأيوبي والمملوكي إذا استثنينا منها تربة الملك الظاهر بيبرس ، ولقد وصفها الأسدي [١] حين اكتمل بناؤها بقوله : « وجاءت في غاية الحسن ليس بدمشق ولا مصر نظيرها [٢] » .

فهي تعكس روح عصر المماليك الذي ازدهرت فيه الفنون وتلقت الأبنية ألواناً من الزخرفة استعملت بسخاء لم نعهده في أبنية العصر الأيوبي .

والسبب في ذلك يرجع إلى الظروف السياسية بشكل خاص . فالعصر الأيوبي كان عصر كفاح وجد من أجل تحرير البلاد من الفرنج وتحقيق الوحدة بين أقطار الشرق العربي ، مما مهد السبيل لقيام دولة قوية كدولة المماليك يسودها الرخاء والاطمئنان ، ومن الطبيعي أن تزدهر الفنون في أيام هذه الدولة ويميل القوم إلى الترف .

ومهما يكن فإن سؤالاً يتردد إلى أذهاننا ونحن ندرس هذه المدرسة الجميلة الحافلة بأنواع الزينة ثم نذكر حياة صاحبها والظروف التي عاشها . هذا السؤال يتعلق بالسبب الذي حمل مثل الأمير جقمق على الاهتمام بتجميل بناء لن يكون قصراً يسكنه بل مدرسة يقيم فيها أساتذة وطلاب .

---

(١) تقدمت ترجمته .

(٢) الدارس ج ١ ص ٤٨٩ .

الواقع أن بناء المدارس في ذلك العصر صار تقليداً متبعاً بين الملوك والأمراء وذوي الجاه . يريد كل منهم تخليد ذكره بعمل عمراني يحمل اسمه وينـاله ثوابه ، وليس أفضل من المدرسة لتحقيق هذا الغرض ، لأنهـا المكان الذي فيه تقـام الصلوات وتعقد حلقات الدرس ويتخرج دعاة الدين الصحيح والفضائل القويمة ، ومن ناحية أخرى فان حيـاة الوالي أو الأمير كانت عسكرية بعيدة عن الاستقرار ، فهو يقضي أكثر أيامه في الحروب والفتن ويسكن القلاع والحصون ، هذا إذا لم يلحقه عزل أو نقل أو تصبه مصادرة أو قتل . وحياة كهذه لا تتيح لصاحبها الانصراف إلى تشييد قصر خاص به ، فليس له إذاً سوى أن ينعم بعد وفـاته بمدفن أمين في مدرسة جميلة يسكن فيه الى ماشاء الله ، وسوف يترحم عليه كل من دخل مدرسته وأعجبه حسنها وبهاؤها أو ناله حظ التعليم فيها .

وأخيراً فإن العنـاية بالمدافن وتجميلها عادة موغلة في القدم ومتبعة لدى أكثر الأمم قديمـاً وحديثاً ، وقد أهملت في العصور الأولى للاسلام لأنها لا تأتلف مع روح الدين الجديد ، إلا أنها ما لبثت أن عادت إلى الظهور وغدت أكثر المدافن جزءاً من بناء كبير جامع أو مدرسة غصت بها مدن العالم الإسلامي ، وامتدت العناية بالمدافن إلى هذه المؤسسات الجديدة .

وهكذا بنى جقمق تربته أو مدرسته وغمرها بفنون من الزخرفة منها ما هو معماري ينصب على نحت الحجر ونقشه وقصقصته لتأليف المقرنصات والمشربيـات والأطاريف والتيجان والأشرطة الكتابية والخطوط العربية وكذلك استعمال المداميك المتناوبة الألوان ، وتشاهد مثل هذه الفنون في الواجهات غالبا .

ثم هناك الزخارف الجدارية وغايتها كسوة الجدران الداخليـة المبنيه بالأحجار الغشيمة أو اللبن بالرخام أو الفسيفساء وتزيينها باللوحات الفنية من كل نوع . وأخيراً الزخرفة بالدهـان والرسوم الملونة ، وتختص بها السقوف الخشبية .

لنقم الآن بالمرور على أقسام البناء المختلفة لنشاهد ما تلقته من هذه الزخارف التي عددناها .

آ) الواجهات الخارجية

سبق أن ذكرت بأن للمدرسة واجهتين نظيفتين فقط هما الشمالية والشرقية ، وكان من الطبيعي توجيه العناية اليهما دون الأخريين نظراً لإشرافها على الشارع العام ، وأول ما يطالعنا فيها المداميك الملونة بشكل متناوب بين الأسود والأبيض (وأحياناً الأصفر) وبذلك برزت حدود المداميك كأسطر في كتاب . وهذا التلوين مظهر جديد ذاع وانتشر في العمارة المملوكية ، وكان من قبل مستعملاً على نطاق ضيق وخاصة في أحجار العقود . ويلاحظ بأن الواجهتين المذكورتين تؤلفان عند اتصالها زاوية مشطوفة حتى ارتفاع ثلاثة أمتار متوجة بقرنص جميل . ويلفت نظرنا بعد ذلك باب المدرسة الفخم بارتفاعه ومقرنصاته ، ففتحة الباب في الواجهة بعمق (١٢٠ سنتمتراً) ، يتقدمها ما يشبه ايواناً يرتفع تسعة أمتار معقوداً بمقرنصات جميلة من عدة طبقات مؤلفة من قبيبات وشمعدانات مدلاة وأشكال موشورية ومحاريب تعلوها جميعاً نصف قبة مضلعة أو صدفة (الصورة رقم ٥) . ولفتحة الباب اطار مخدد ، وفوق الساكف (Lintau) عقد عاتق (Arcde décharge) ذو فراغ خفيف لتوزيع الثقل عن ساكف الباب معقود من حجارة مقصقصة متشابكة تؤلف مزرراً من لونين أصفر وأسود (الصورة رقم ٦) .

يلي ذلك مدماك زخرفي يمتد من الباب وينتظم سائر الواجهتين يتألف من أحجار مقصوصة الأطراف دككت ببعضها بشكل يتناوب فيه اللون الأسود والأصفر ويطلق عليها اسم المشربيات أو الصنجات المزررة . (انظر الصورة رقم ٥) .

وبعدها يأتي شريط من الكتابة يطوق الواجهتين أيضاً ويشغل مكان مدماكين بارتفاع (٦٤ سم) ، وقد كتبت بأحرف بارزة مذهبة وخط نسخي جميل ، ولهذه الكتابة غرض تزييني وتأريخي معاً وتشتمل على آيات قرآنية يليها ذكر باني المدرسة والخانقاه وتاريخ البناء وقد أوردنا نصها في أول هذا البحث (انظر الصورة رقم ٥) .

هناك عنصر زخرفي معماري آخر يتألف من أحجار منحوتة الأطراف مرصوفة في أعلى الجدار إلى جانب بعضها يطلق عليها اسم الشرفات (Merlon) (الصورة رقم ٧) . وهناك مشربيات

اخرى تشبه الزنبقة مدككة ببعضها في لونين متناوبين مؤلفة وردة كبيرة (الصورة رقم ٨) نشاهدهـا في القسم العلوي من الواجهة ، واحدة منهـا في الواجهة الشرقية واثنتان في الواجهة الشمالية . ويلاحظ بان الفنان استغل هذه الوردة فوضع في مركزها (رنك) الأمير جقمق أي شعاره وهو عبارة عن قرص من الحجر الأصفر فيه ثلاثة حقول العلوي منها نقشت عليه الدواة وادوات الكتابة رمز (الدوادارية) أو أمانة السر التي كان يشغلها الأمير عند السلطان وفي الحقل الاوسط كأس كبير حفر عليه كأسان صغيران وفي الحقل السفلي كأس صغير آخر . (انظر الشكل رقم ٩) .

ولئن حظيت الواجهة الشمالية بالبـاب الفخم فقد خصت الواجهة الشرقية بعمل فني آخر نلحظه في منتصفها . وهو عبارة عن محراب معقود بالمقرنصات والدلايات تعلوه لوحة هندسية جميلة من الأحجار الملونة المتشابكة والمضفورة ، (الصورة رقم ٧) . واخيراً نشاهد في هذه الواجهة ثلاث طاقات الوسطى مستديرة ذات اطار حجري مخدود والجانبيتان مستطيلتان لهما عقد مدبب . ونعتقد بأن هذه الطاقات كانت مزودة بقمريات جصية مزدانة بالزجاج الملون .

ب) الصحن

نجتاز قبل دخولنا الى الصحن دهليزاً صغيراً مسقوفاً بقبو متقاطع تتوسطه قبة مضلعة ضمن اطار حجري مثمن وهي قليلة العمق تحيط بها المقرنصات (الصورة رقم ١٠) .

أما الصحن فقد بلطت أرضه بالحجارة الملونة والرخام ورصفت في لوحات هندسية ، وفي وسط الصحن بركة مثمنة مكسوة بالرخام والزخارف (انظر المخطط رقم ٢) .

ويمتد الترخيم الى وزرات الأواوين التي ترتفع عن الصحن حوالي ثلاثـة أرباع المتر . وجدران الصحن لا تخلو من زينة تتجلى في القسم الحجري منهـا كالمداميك المتناوبة بالأبيض والأصفر ، وشريط المشربيات المزررة ، وشريط المحاريب الذي يفصل بين القسم الحجري والقسم المبني باللبن والكلسة ، ونشاهد التلوين أيضاً في حجارة العقود جميعها فهي سوداء متناوبة مع البيضاء أو الصفراء ، وسقف الصحن الخشبي كبقية سقوف الأواوين كلها مزينة بالرسوم الملونة المؤلفة من عروق نباتية وأزهار متنوعة وقد جددت هذه السقوف كلها حديثاً نظراً لتهدم المدرسة وضياع أخشابها (انظر الصورتين ١١ و ١٢) .

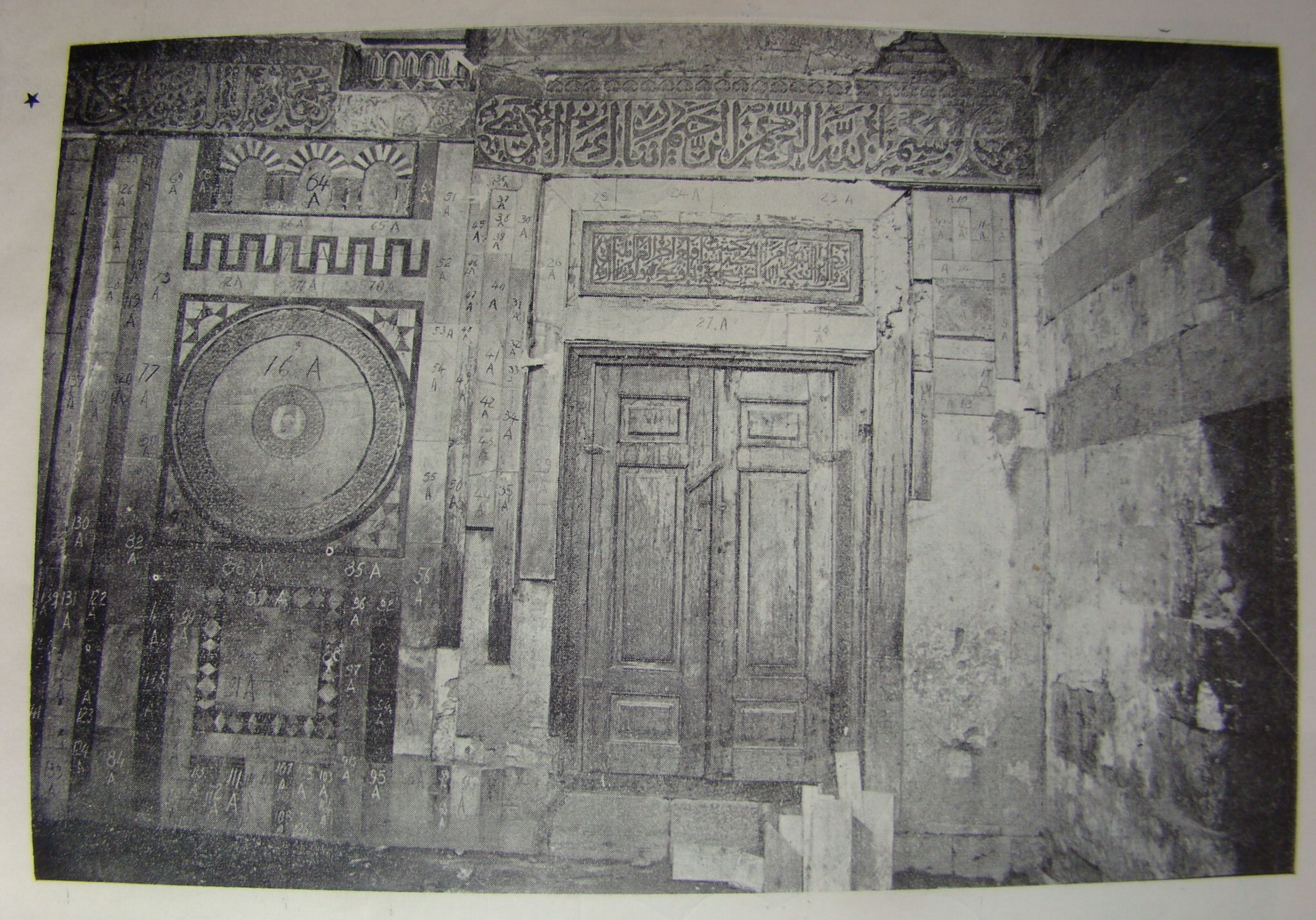
إذا تأملنا زخارف السقوف بدا لنا أنها تنتسب في موضوعها إلى الفن العثماني وانها غريبة عن العصر المملوكي ، فهل سبق أن جددت السقوف ؟ اننـا لم نعثر في الأخبار على دليل لهذا التجديد .

ج) قاعة التدريس والتربة

سنتحدث الآن عن الزخارف الجدارية التي تكسو الجدران الداخلية حتى ارتفاع أربعة أمتار وتتألف من رخام وفسيفساء ولوحات كتابية وأخرى منقوشة بمواضيع نباتية وحليات مختلفة ، وكلها موزعة توزيعاً متناسقاً على جدران القاعة مع شيء من التناظر ، وكذلك الأمر في جدران التربة مع اختلاف بسيط في مواضيع بعض اللوحات الزخرفية (الصورة رقم ١٣) .

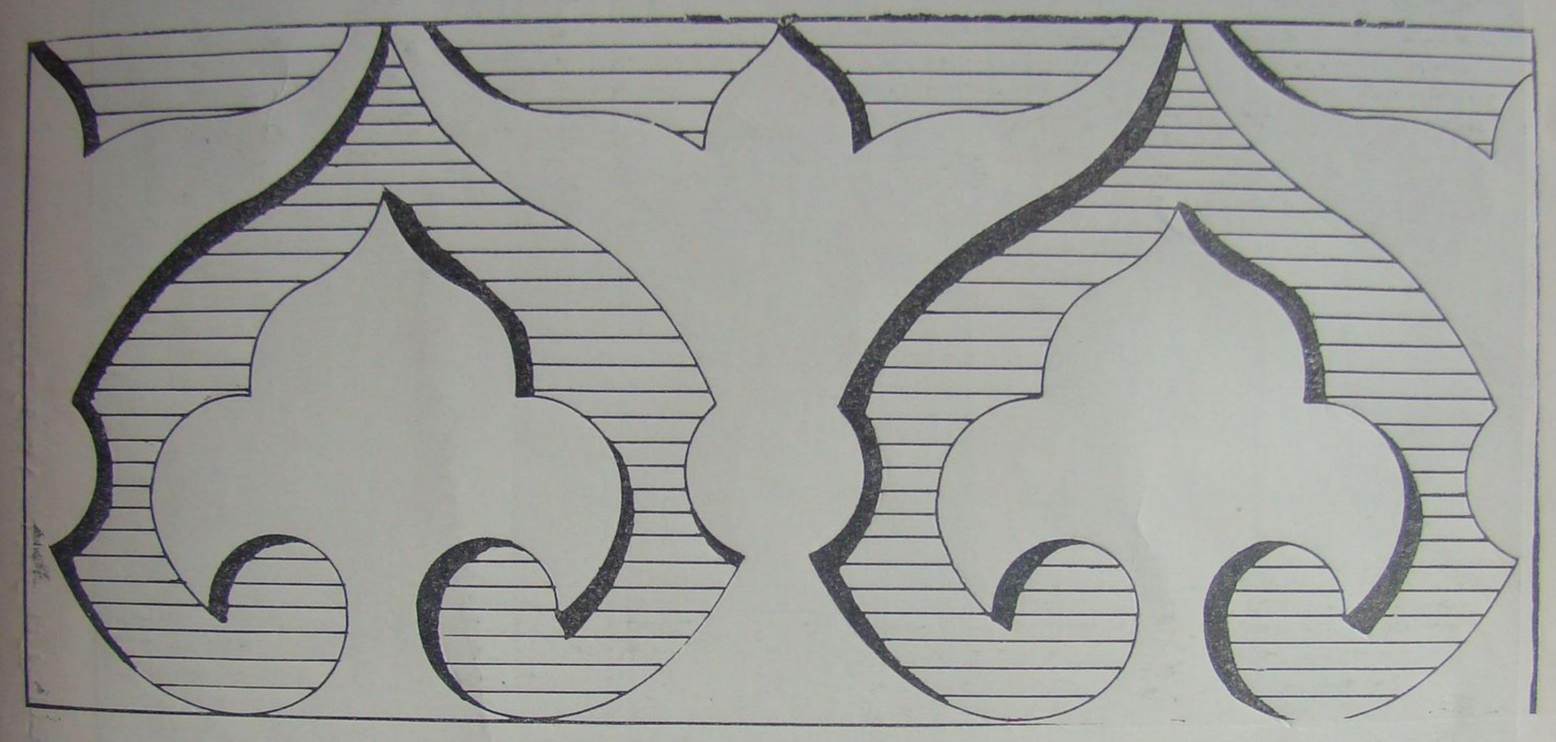
هذه الزخارف بمجموعها تمثل مرحلة من مراحل التطور بلغها فن الزخرفة في العصر المملوكي فلقد كانت الجدران في العصر الأموي تزين بالرخام المجزع والفسيفساء الزجاجية ، أو بالرسوم الملونة (Fresc) وأكثرها موروث عن الفنون الكلاسيكية القديمة . ثم أخذ الفنانون المسلمون يبتكرون اساليب جديدة لكسوة الجدران وزخرفتها فأوجدوا الزخارف الجصية ذات النقوش البارزة أو المخرمة . والمواضيع الهندسية والنباتية وهو ما يسمى (بالارابيسك) ، وقد شاع هذا الفن في العصرين الفاطمي والأيوبي ، وله نماذج كثيرة رائعة في الأوابد الدمشقية من العصر الأيوبي ، وما أن بدأ العصر المملوكي حتى ظهرت في الميدان أساليب جديدة تعتمد على استعمال نوع من الفسيفساء ذات الفصوص الهندسية الملونة التي تتألف منها لوحات هندسية مطعمة بالصدف البراق .

أما في المدرسة الجقمقية فان هذه الكسوة الجدارية تبدأ في الاعلى بشريط من الآيات القرآنية منقوشة بخط نسخي على بلاطات من الحجر ومذهبة على أرضية زرقـاء ، والشريط مقسم إلى مقاطع تفصل بينهـا حليات مستديرة منقوش عليها عروق نباتية ملتفة (الصورة رقم ١٤) وحافة الشريط العليا مزينة بسلسلة من الأوراق النباتية تشبه أزهار الزنبق



الصورة رقم ١٣ ـ الجدار الغربي لقاعة المدرسة

الصورة رقم ١٤ ـ شريط من الآيات القرآنية في قاعة المدرسة



الشكل رقم ١٥ ـ تحليل لاطار الزخارف المحيط بالآيات القرآنية في الصورة السابقة



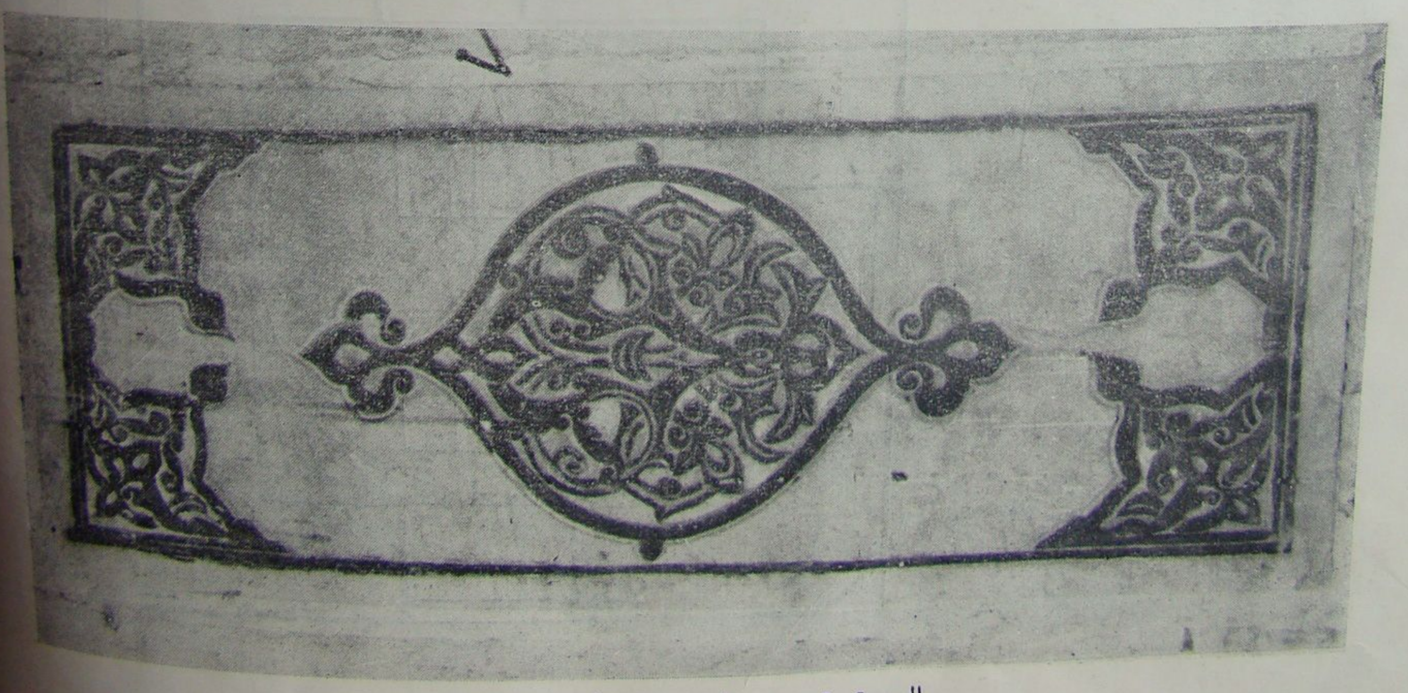
الصورة رقم ١٦ ـ لوحة كتبت بالخطين الكوفي والنسخي



الصورة رقم ١٧ ـ لوحة من العقود الزخرفية

الصورة رقم ١٨ ـ لوحة من العقود الزخرفية

الصورة رقم ١٩ ـ زخارف جدارية في المصلى



الصورة رقم ٢٠ ـ لوحة رخامية في جدار التربة



الصورة رقم ٢١ ـ محراب قاعة المصلى

وقد نحتت نحتاً بارزاً نشاهد تحليلاً لها في الشكل (رقم ١٥) ويلي شريط الكتابة هذا ترخيم يمتد حتى الارض ، مكون من الواح الرخام الأبيض وحجارة سوداء صقيلة (قارية(١)) وأخرى حمراء . تتخلل ذلك لوحات زخرفيه متنوعة .

ونميز في جدران القاعة منطقتان من الزخارف ، تحتوي الأولى على شبابيك ذات اطار خشبي منقوش بالزخارف الناعمة ، وفوق كل شباك لوحة كتابية مستطيلة ضمن اطار من الرخام الأبيض واللوحة من الحجر نحت عليها سطران من الآيات القرآنية ذات الحروف البارزة ، العلوي منها مكتوب بخط نسخي والسفلي بخط كوفي ، (الصورة رقم ١٦) وللوحة حافة منقوشة بزخارف مكونة من تكرار ورقة نباتية تشبه ورقة الزنبق .

أما منطقة الزخارف الثانية فتحتل الفراغ الكائن بين الشبابيك وزخارفها متشابهة مع اختلاف بسيط في جدار القبلة وفيما يلي أهم لوحات هذه المناطق مرتبة من الأعلى إلى الأسفل :

آ) لوحة مستطيلة تحتوي على ثلاثة أقواس تزيينية دائرية (بوائك) أحجارها تتناوب فيها الألوان الأسود والأبيض والأحمر ، محمولة على سويريات منقوشة بالزخارف ، وأرضية اللوحة وحشواتها منزلة بالفسيفساء الرخامية المطعمة بالصدف ذات مواضيع هندسية (الصورة رقم ١٧) أما في الجدار القبلي فإن هذه الأقواس تصبح ثلاثية الفصوص منقوشة بالزخارف النباتية البارزة عدا السويريات فهي ملساء وهي من الرخام الأبيض (الصورة رقم ١٨)

ب) اللوحة الثانية عبارة عن خيط زخرفي يوناني من الحجر الأسود على أرضية بيضاء انظر الصورة (رقم ١٣) . وهذا الخيط يتحول في الجدار القبلي إلى لوحة مستطيلة سوداء ضمن اطار أبيض .

ج) لوحة مربعة ضمنها قرص كبير من الرخام ينقسم إلى أربعة حقول اثنان منها منقوشان بعروق نباتية ملتفة (أرابيسك) نقشاً بارزاً موشى بالذهب . أما زوايا اللوحة المربعة فمطعمة بالفسيفساء

---

(١) نسبة لقرية قارة الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص .

الرخامية والصدف (الصورة رقم ١٩) . أما في الجدار الجنوبي فتشاهد مكان هذه اللوحة المربعة لوحة مستطيلة ذات اطار منقوش . وفي جدران التربة لوحات جدارية رخامية مشابهة لما في المصلّى مع اختلاف في بعض الاشكال (انظر الصورة رقم ٢٠) .

وأخيراً فإن أجمل ما في المدرسة محرابها المرخم البديع الصنع . ويتألف من حنية تعلوها نصف قبة ذات عقد مدبب محمول على عمودين مضلعين من الرخام الأخضر المجزع لهما قاعدتان عليها زخارف وتخاريم جميلة وتاجان من النوع الكورنثي المتطور . وقد كسيت الحنية بمجموعة من الزخارف فيها البوائك المؤلفة من سلسلة من الأقواس المحفورة بالزخارف وفيها الرخام والفسيفساء الهندسية المطعمة بالصدف ، أما قبة المحراب فمكسوة بالفسيفساء ذات المكعبات الزجاجية . وللمحراب واجهة من الرخام الملون على شكل خيوط مضفورة وأقواس متشابكة من نوع حدوة الفرس المستديرة ، وفسيفساء في الزوايا (انظر الصورة رقم ٢١) .

عبد القادر الريحاوي

